أساليب التفكير :

التفكير فى الشرق القديم

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجى

كل منا يسعى إلى استكناه أسرار الوجود ، وكشف الستر عن خباياه ، تتتابع على مشهد منه ظواهر الطبيعة ، وتتوالى أمام ناظريه مواكب الأحياء ، وتترى تحت سمعه وبصره أحداث الإنسان : فيعمل الفكر بغية اكتشاف أسباب هذه الأمور ، والبواعث التى تحدثها وتسيرها ، والغايات التى تتجه إليها والحكمة الكامنة وراءها . وجملة القول أن الإنسان يحاول تفسير ما يبصر وما يسمع وما يحس ، وتختلف تفسيراته تبعاً لتقدمه الفكرى ومرتقبته من التطور العقلى .

من أجل ذلك اختلفت تفسيرات الطفل عن تفسيرات الراشد المكتمل ، وتفسيرات المجنون عن تفسيرات العاقل المتزن ، وتفسيرات البدائى عن تفسيرات المتمدن المتحضر . اتفق الجميع على أمر واحد : هو البحث عن الحقيقة ما امتدت بهم أسباب الحياة ، ولكنهم يسلكون سبيلا ثلاثا أقصرها وأسلمها سبيل العلم ، وأرحبها طريق الفلسفة ، وأدناها وأكثرها التواء ودورانا حول الحقيقة طريق التفكير الخرافى .

وقد حدثت القراء فى مقال سابق عن التفكير الخرافى فى حياة الفرد ، وانتهيت معه إلى أنه رغم بعده عن الحقيقة الموضوعية ، وانحرافه عن القصد فى محاولة بلوغ الواقع ، يعد وثبة أولى فى طريق العلم والعرفان ، ومحاولة ساذجة لكشف أسرار الوجود ، ومرحلة لا زمة فى التطور الفكرى لا بد مسلمة إلى ما هو أرقى : إلى الفلسفة والعلم .

والبشرية فى تطورها الفكرى كالفرد فى تطوره الفكرى . لم تكشف عن قوانين الجاذبية ، ومدار الأفلاك ، والقوة الكهربائية ، والطاقة الذرية ، إلا بعد جهاد عنيف ، وكفاح فكرى شاق دام آماداً طوالا ، ومحاولات مضنية كان أولها التفكير الخرافى الذى يسم العقل البشرى فى طفولته .

الكويتية بأنواعها ، وأنا أذكر بيتاً من نشيد نبطى هو :

لابتى (يا أصحابى) حناشبوب الحرايب (الحروب)
وانطقت حنـــا ســـنا نارهـــا

كما أذكر أغنية من (أغانى الدوازم) وهى نوع من الغناء تطرق إليه الأدب الشعبى الكويتى :

وأمسى الضحى باديا قـــريج (فريق) مصبح
جينا الطوع (أتينا الشيخ) يحدث أمى الأبصار
يقول : طرد (أى طالب) الهوى نارن (نار) شمالى
والله لا أسمع حـــديثه لو يجنه (يجن)
وانبع هوى البيض فى هرجن (الكلام) يقالى

وملاحظتى الأخيرة عن هذا الأدب الشعبى أنه لم يتبذل فى القول ، ولم يتخذ عامى الكلام سبيلا للنكات الفاحشة والأغراض السقيمة بل هو ذو أغراض طيبة تجنى الكويت من ورائها كل خير وكل فائدة .

وما هو إلا قليل من العناية وقليل من التشجيع ومزيد من الثقافة الجديدة التى أفعمت سماء الكويت وأرضها تضيق على الأدب الشعبى حتى يكون فى مصاف الآداب الشعبية . وأنا أرى أن الكويت فى حاجة ماسة إليه لتتخذه وسيلة لدعايتها الوطنية ، وقد جربت فيه ذلك فوجدت الدرع الفولاذى والفكر العبقرى .

ولا يغيب عنا أن اللهجة الكويتية الأثر البين فى الأدب الشعبى فى الكويت ، وسأبحث تلك اللهجة فى مقال مقبل بحثاً مستفيضا ، إذ أن قراء العربية فى حاجة ماسة لأن يعرفوا الشىء الكثير عن الكويت ، وقد ارتقت رقيا باهراً فى أوقات قصيرة ؛ بيد أن ونى العناية وقلة أساليب التعارف ووسائلها بين أقطار العالم العربى يحول دون إبداء الحقيقة والمعرفة الصحيحة ، وما أحوجنا إلى إبدائها ونحن فى فترات أحوج ما تكون فيها إلى التآزر والتضامن فى جميع عناصر الحياة .

أحمد ط السنوسى

فالتراث الفكرى الذى خلفته أجيال البشر يبين أن أول مرحلة من مراحل التفكير كانت مرحلة دينية صرفة ، يمتزج فيها التفكير بالخيال .

ونحن نعلم أن الفكر الإنسانى بزغ أول ما بزغ فى الشرق القديم : عند المصريين والفرس والأشوريين والبابليين والهنود والصينيين . ونظرة عامة إلى ما خلف هؤلاء من محاولات تفسيرية تكشف عن غلبة الناطقة الدينية ، وسيطرة التقاليد الموروثة ، والجنوح إلى الخيال .

ولا بد لتفكير يصدر عن الأهواء والعواطف ، ويستمد المعارف من الخيال والأوهام ، ويستهدف السعادة فى الدنيا والآخرة ، لا بد لتفكير هذا شأنه أن ينتج عقائد دينية ، وفنوناً جميلة ، وحكمة أخلاقية ، كل ذلك فى مزيج واحد متفاعل لا فرق فيه بين علم وفن ودين وأخلاق ، حتى لنجد علماء القرون الغابرة هم شعراؤها وحكماؤها وكهنتها فى آن واحد .

ألا ترى إلى الكهنة المصريين فى العهد الفرعونى يرعون الدين ، ويحمون الفضيلة ، ويحملون رسالة العلم ، ويرفعون لواء الحكمة ، ويوجهون سياسة الدولة ، ويتحكمون فى مصير الشعب ؟ أولم يكن شعراء العرب فى بداوتهم ، وشعراء اليونان قبل عصر الفلسفة قادة الفكر وقادة المجتمع فى هذه الربوع ؟ فامرؤ القيس والنابغة والأعشى وزهير فى جزيرة العرب ، وهو ميروس وسحبه ممن طمست الأحقاب أسماءهم فى بلاد اليونان .[1]

وهل ننسى أن زراد شت حكيم الفرس كان داعية دينية لعقيدة تحمل بين ثناياها فلسفة ناشئة ؟

وهل كان بوذا الحكيم الذى خلد فى تاريخ الفكر بحكمته الأخلاقية وتحرره الفكرى وآرائه السياسية ، إلا كاهناً لإحدى القبائل الهندية الكبرى وابنا لشيخها ؟

وجملة القول أن التفكير الخرافى فى الشرق القديم يتصف بخصائص ثلاث : الخضوع لسلطان الدين أى التقاليد الموروثة المقدسة ، والاتجاه الخيالى ومن هنا كانت صلته الوثيقة بالفن ، والنزعة الأخلاقية .

وعلينا الآن أن نستعرض أمثلة من الفكر الشرقى القديم مبتدئين بالتفكير فى مصر القديمة .

لم يكن المصريين دين واحد ، بل أديان عدة اختلفت باختلاف الأقاليم ، وتطورت مع تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى وادى النيل . وقد برزت الديانة المصرية القديمة كعامل هام فى حياة الشعب ، فى عهد مشيدى الأهرام كخوفو وخفرع وأوناس ، وفى عهد الملوك الغزاة كتحتمس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى[1] .

والذى يهمنا فى هذه الديانة هو تصور المصريين للكون ، وسذاجة تفسيراتهم لأحداثه : فهذا أمنحتب الرابع ، الذى عبد آتون (قرص الشمس) فسمى لذلك « أخناتون » أى روح آتون ، ينشد مخاطباً قرص الشمس معتبراً إياه علة الظواهر الطبيعية ، وقوة روحية تدبر الكائنات :

« يا شمس النهار ، يا من تحتشاه البلاد القاصية
أنت موجد حياتهم
أنت الذى خلقت فى السماء نيلا
لكى ينزل عليهم ولهم .
يتساقط الفيضان على الجبال كالبحر الزاخر
فيسقى مزارعهم وسط ديارهم .
ما أبدع تدابيرك يا إله الأبدية ... »

هذا ولم يكتف المصريون بعبادة الشمس من حيث هى مصدر الحياة ، وإنما قدسوا النيل ، واتخذوا من السماء إلهاً ، ومن الكواكب أرباباً ، كما يتبين من دعاء ورد فى إحدى أوراق البردى ذلك نصه : « أنت الإله الأكبر ، سيد السماء والأرض ، خالق كل شىء ، يا إلهى وربى وخالق ، قوّ بصرى وبصيرتى لأستشعر مجدك ، واجعل أذنى صافية لأقوالك ... »

وهكذا يتبين تأليه المصريين لقوى الطبيعة بحكم بداوتها الفكرية ، شأنهم فى ذلك شأن الطفل : موضوعات الدين فى ذهنه صور حسية خيالية ، لم ترق بعد إلى المستوى العقلى التجريدى ؛ العامل الذى يميل بحكم طوره العقل إلى أن يضفى على الكائنات جامدة كانت أو حيوانية صفاته الإنسانية ؛ فيرى الشمس والقمر

(١) انظر كتاب قادة الفكر للدكتور طه حسين .

(١) انظر كتاب الأدب والدين عند قدماء المصريين تأليف الأستاذ أنطون زكرى .

والنجوم حاصلة على صفات الكائنات الإنسانية ، من قدرة وإرادة وفهم ، الأمر الذى يجعله حينما يصطدم بحائط أو باب صدمة تؤلمه ، ينهال عليه ركلا ، مفرغاً فيه حنقه كما لو كان الحائط أو الباب ذا إرادة شريرة ، وكما لو كان يحس الألم كما يحسه هو .

وهذا يذكرنا بأحد الأباطرة القدماء الذى انهال على مياه البسفور ضرباً بالسلاسل لأنه اجترأ فاكتسح أسطوله .

فسلوك المصريين القدماء إزاء قوى الطبيعة المعبودة ، وسلوك الطفل إزاء الباب ، وسلوك الامبراطور الحانق على البسفور سلوك ناجم عن تصور خرافى للحوادث ، وتعليل وهمى لها

آمن المصرى القديم بخلود الروح . ولا يسع من يستعرض مقابره ونقوشه ومعابده إلا أن يستوثق من سيطرة هذه العقيدة على ذهنه سيطرة أذهلته عن واقع الحياة ، ومن شوقه المتحرق للعالم الآخر ، شوقاً أطلق الخيال يجوب فى آفاق هذا العالم المجهول ، فيرسم صورة لحياة الروح بعد مغادرة الجسد ، صورة هى لوحة فنية لا أثر للعقل فيها ، ولا فضل للبرهان فى تثبيتها ، إنما الفضل كل الفضل للخيال الذى أنتجها ، والعاطفة الدينية التى ألهمتها .

هذا « أوزوريس » الإله الصالح (رمز الخير والعدالة) يرأس محكمة العدل الكبرى ، يجلس على عرشه فى صدر قاعة يكلل سقفها القناديل وعلامات الحق ، وأمامه أحفاده أبناء « حورس » وآلهة أركان العالم الأربعة ، ومعهم اثنان وأربعون قاضياً ، بعضهم برؤوس بشرية ، وبعضهم برؤوس حيوانية ، وعلى رأس كل منهم ريشة نعامة رمزاً للمعبودة (معت) ، ممثلة الحق والاستقامة والعدل ، وفى يد كل منهم سيف لقتل الخاطىء ، ووظيفتهم ملاحظة ما يظهر فى كفتى الميزان الذى يزن الحسنات والسيئات .

وأمام « أوزوريس » وحش مفترس متحفز لافتراس الميت إذا رجحت كفة خطاياه . ثم يقف الميت على باب قاعة العدل خائفاً مرتعداً فى الساعة الرهيبة التى يقرر فيها مصيره ، ويترافع عن نفسه ، ثم يصدر الحكم بالبراءة أو الإدانة ؛ حتى إذا انتهت المحاكمة أمر « أوزوريس » بالفائزين إلى الجنة وبالخاسرين إلى الجحيم .

هذه أفكار الخلود والثواب والعقاب ، كما يصورها كتاب الموتى تصويراً حسياً خيالياً ، دون برهان ودون تفكير عقلى خالص . إنما هى محاولة فكرية لمعرفة ما وراء الموت ، ومصير المذنب ونهاية المحسن ، محاولة استخدمت فيها الوسيلة الوحيدة التى يسمح بها ذلك الطور من الفكر العقلى : طور الخرافة والعاطفة .

وما دمنا بصدد الحديث عن المذنب والمحسن ، أو عن الخير والشر فلننتقل إلى « زرادشت » ، أبرز حكماء الفرس ، الذى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد ، وخلف ديناً لا يزال له أتباع حتى اليوم فى ربوع الهند وغيرها .

وقف زرادشت حائراً فى عالم متناقض فيه الخير والشر ، والجمال والقبح ، والسعادة والشقاء ؛ وأعمل فكره محاولا تفسير شطرى الوجود فتصور العالم نهباً لروحين متصارعين : أورموزدا وأهريمان . الأول إله الخير ، صانع السماء والأرض والبشر والملائكة الأبرار ؛ والثانى إله الشر ، علة الموت ومنشىء الرذائل ومحدث الأمراض والشياطين . الأول يؤلف مع ملائكته وأتباعه الصالحين حزب الحق ، والثانى يؤلف مع شياطينه والكفار المنافقين حزب الباطل . والحرب بين الحزبين سجال . ولكن زرادشت حكيم متفائل ، يدفعه تفاؤله إلى تصور نهاية سعيدة للرواية الكونية ، إذ يغلب الخير فى النهاية ويصبح العالم كلا واحداً متجانساً إلى أبد الآبدين .

(البقية فى العدد القادم) عبد المنعم عبد العزيز الملجمي

من الأدب الفرنسى

قصائد وأقاصيص

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد المختارة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها .

وثمنه ٣٥ قرشاً عدا أجرة البريد